الحملة الموحدية على شنترين Santarem سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م

مقدماتها ووقائعها ونتائجها

الأستاذ الدكتور

حسين جبار العلياوي

hussain.mechateel@uobasrah.edu.iq

الأستاذ الدكتور

جاسم ياسين الدرويش

phjassim2@yahoo.com

قسم التاريخ، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة

The Almohade campaign against Santarem in the year 580AH/ 1184 AD , its introductions , facts , and results

Dr Prof. Hussein Jabbar Al - Aleiyawi

Dr Prof. Jassim Yassin Al Darweesh

Dept. of History, College of Education for Human Sciences, University of Basrah

الملخص:-

تقع مدينة شنترين بالقرب من مصب نهر تاجة في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية بالقرب من المحيط الأطلسي، وهي إلى الشرق من مدينة لشبونة عاصمة البرتغال الحالية، وفتها المسلمون حوالي سنة ٩٥هـ/٧١٣م واستمرت تحكم من قبل المسلمين حتى سقوطها بيد النصارى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م.

إلاّ أن ذلك لم يضع حداً للصراع بين الجانبين، فقد جعل منها نصارى البرتغال مركزاً تتجمع فيه جيوشهم لمهاجمة مدن الغرب الأندلسي، لذا حاول الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي قيادة حملة كبيرة لاسترجاعها سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م، وعلى الرغم من ضخامة الحملة إلا أنه لم تستطع تحقيق أهدافها، فجاءت بنتائج عكسية على الدولة الموحدية كان في مقدمتها مقتل الخليفة الموحدي وهزيمة جيشه، مما مهد السبيل أمام القوات النصرانية للاستيلاء على العديد من المدن الأخرى مستغلين حالة الانكسار التي أصابت الجيش الموحدي ومهدت السبيل فيما بعد من استيلاء البرتغاليين على معظم مدن الغرب الأندلسي.

الكلمات المفتاحية: نهر تاجة، الفونسو هنريكيز، جيراندا سمبا فور، أبو الحسن المالقي.

Abstract:-

Santarem is located near the mouth of the Tagus River in the west of the Iberian Peninsula near the Atlantic Ocean, and it is to the east of Lisbon, the current capital of Portugal. It was controlled by the Muslims around the year 95 AH/713 AD, and it continued to be ruled by the Muslims until it fell into the hands of the Christians in the year 542 AH/1147 AD.

However, this did not put an end to the conflict between the two sides, as the Christians of Portugal made it a center where their armies gathered to attack the cities of the Andalusian West, so Alkhalifa Abu Yaqub Yusuf bin Abd al-Mumin al-Muwahdi tried to lead a large campaign to recover it in the year 580 AH/1184 AD, and despite the magnitude of the campaign, only That it was unable to achieve its goals, so it opposite on the Almohad state, foremost of which was the killing of the Almohade khalifa and the defeat of his army, which paved the way for the Christian forces to seize many other cities, taking advantage of the state of refraction that afflicted the Almohade army and later paved the way for the Portuguese takeover of most of the cities Andalusian West.

Key words: Rio Tajo, Alfonso Henriquez, Geranda Simba Four, Abu Al-Hassan Al-Malq.

المقدمة:

تقع مدينة شنترين بالقرب من مصب نهر تاجة في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية بالقرب من المحيط الأطلسي، وهي إلى الشرق من مدينة لشبونة عاصمة البرتغال الحالية، وفتحها المسلمون حوالي سنة ٩٥هـ/٧١٣م في عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير، ومنذ ذلك الحين دخلت المدينة في حوزة المسلمين وتعاقب عليها ولاتهم، وكان لموقعها على الضفة اليسرى لنهر تاجة جعل منها ساحة للصراع بين المسلمين والنصارى والذي استمر حتى سقوطها بيد نصارى البرتغال سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م.

إلا أن ذلك لم ينه حالة المواجهة فقد حاول المسلمون ولمرات عديدة إعادة المدينة إلى حوزتهم وكان أهمها حملة الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م، ولأهمية هذه الحملة من حيث الموجبات لها ووقائعها ونتائجها على الأندلس والدولة الموحدية لذا جاء هذا البحث ليسلط الضوء عليها، فتناول في المبحث الأول مقدمة تاريخية عن مدينة شنترين حتى سقوطها بيد نصارى البرتغال سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م، فيما تناول المبحث الثاني الحملة الموحدية على شنترين سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م وركز على الأحداث السابقة لها والدوافع الموجبة لذلك ثم وقائعها، وجاء المبحث الثالث ليتضمن أهم نتائج الحملة على الأندلس والدولة الموحدية.

المبحث الأول

نبذة تاريخية عن مدينة شنترين حتى سقوطها سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٥م

تقع مدينة شنترين بالقرب من مصب نهر تاجةRio Tajo[١] في غرب شبه الجزيرة الأيبيرية Iberia بالقرب من المحيط الأطلسي[٢]، وهي إلى الشرق من مدينة لشبونةLisbon عاصمة البرتغال الحالية[٣]، فتحها المسلمون في عهد الوالي عبد العزيز بن موسى بن نصير (٩٥-٩٧هـ/٧١٣-٧١٥م) بعد أن تولى حكم الأندلس بعد رجوع أبيه إلى المشرق بناءً على طلب الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)، لذلك أخذ عبد العزيز بن موسى على عاتقه فتح المناطق التي لم تفتح في عهد أبيه[٤]، والراجح أن المدينة فتحت صلحاً، إذ لم تشر المصادر المعتمدة بأخبار عن مواجهات عسكرية في شمال غرب شبه الجزيرة الأيبيرية، ولعل ذلك يرجع إلى طلب السكان في تلك المناطق السلم مع الجيش

الإسلامي، حيث لا جدوى من المقاومة بعد أن فرّ معظم الجيش القوطي وقتل ملكهم، وفي هذا المنوال قال المقري: ((...، وأطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية))[٥]، وقد رجح ذلك بعض الباحثين بالقول إن عبد العزيز بن موسى بعد فتحه مدن الغرب لشبونة وشنترةCintra وشنترين عقد معاهدات صلح مع هذه المدن المفتوحة[٦].

وفي أعقاب الفتح استوطنها العديد من القبائل البربرية[٧] والعربية[٨]، وخلال عصر الإمارة (١٣٨-٣١٦هـ/٧٥٥-٩٢٨م) كان خط المدن الواقعة على نهر تاجة غرب الأندلس مسرحاً للمواجهات بين القوات الإسلامية والنصرانية[٩]، وفي أواخر هذا العصر خضعت شنترين وعدد من مدن الغرب الأندلسي لسيطرة عبد الرحمن بن مروان الجليقي[١٠]، إذ استولى الجليقي على قسم كبير من منطقة الثغر الأدنى[١١]، وصار رئيس المولدين[١٢] هناك[١٣]، وبقيت في حوزته حتى عهد الخليفة الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) الذي تمكن من إعادتها إلى نفوذ حكومة قرطبةCordoba[١٤]، واستمر الحال بها حتى سقوط الخلافة الأموية في الأندلس سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وانقسام الأندلس إلى دويلات طوائف Taifas, Los فكانت مدينة شنترين وبقية مناطق غرب الأندلس تحت نفوذ بني الأفطس[١٥] (٤١٣-٤٨٨هـ/١٠٢٢-١٠٩٥م)، وفي عهدهم كانت مدينة شنترين وبقية مدن الغرب الأندلسي عرضة لهجمات النصارى، فقد هاجمها الملك القشتالي فرناندو الأول (٤٢٦-٤٥٨هـ/١٠٣٤-١٠٦٥م) ولم ينسحب إلا بعد أن فرض عليها جزية كبيرة[١٦]، ومع ذلك لم يتوقف الخطر النصراني عليها مؤقتاً إلا بعد دخولها في حوزة المرابطين Almoravides, Los سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤م[١٧].

إلا أن تلك الحقبة كانت حرجة بالنسبة للمسلمين في غرب الأندلس لأنها شهدت ظهور دولة البرتغالPortuga على المسرح السياسي[١٨]، وأخذت تهاجم مناطق الغرب الأندلسي وتمكنوا فعلاً من السيطرة على شنترين في عهد أميرها هنري البرجوني (٤٨٨-٥٢٢هـ/١٠٩٥-١١٢٨م) وهو ما دعا المرابطين إلى استرجاعها منهم مرة أخرى في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م[١٩]، إلا أن نصارى البرتغال لم يستكنوا طويلاً، فحاولوا استرجاع مدينة شنترين وقادوا حملة عسكرية سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ م إلى المدينة، إلا أن القوات المرابطية فيها تمكنت من صدهم، وقتلت وأسرت العديد منهم، كما حصلت على بعض الغنائم[٢٠].

كان المرابطون يمرون بمحنة عصيبة في ذلك الوقت، ففي المغرب تعرضت جيوشهم إلى هزائم متكررة على أيدي الموحدين[٢١] Almohades,Los[٢٢]، وفي الأندلس واجهوا ثورات عديدة منها ثورة أهل شرق الأندلس وأهل قرطبة ومالقةMalaga[٢٣]، ثم جاءت ثورة الجنوب الغربي للأندلس لتضع حدا لنفوذ المرابطين هناك[٢٤]، وفي الوقت ذاته شهدت الساحة السياسية في دولة البرتغال النصرانية تطوراً جديداً زاد من قوتها وطموحها، فبعد وفاة هنري البرجوني سنة ٥٠٥ هـ/١١١٢م تولت زوجته تيريزا الوصاية على ابنها الفونسو هنريكيز حتى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩م حيث نصب أميراً على البرتغال، وقد عمد الفونسو هنريكيز(وتسمية المصادر العربية ابن الرنق أو الرنك أو الريق)[٢٥] إلى العمل على استقلال البرتغال عن قشتالةCastilla وخاض معها قتالاً حتى تمكن من تحقيق هدفه حيث أعلن نفسه ملكاً على البرتغال سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م[٢٦]، وتعهد أن يدفع بحدود دولته نحو الأراضي الإسلامية في غرب الأندلس[٢٧].

وبخصوص استيلاء الملك البرتغالي على مدينة شنترين وبقية مدن الساحل الغربي عند مصب نهر تاجة، هناك روايتان، جاءت الأولى عند ابن الأثير في أحداث سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥م أشارت إلى أن مدينة شنترين ولشبونة وعدد من مدن الغرب الأندلسي سقطت بيد النصارى في هذه السنة، إذ قال: ((وفيها ملك الفرنج، لعنهم الله، مدينة شنترين وباجة وماردة وأشبونة، وسائر المعاقل المجاورة لها من بلاد الأندلس، وكانت للمسلمين فاختلفوا، فطمع العدو، وأخذ هذه المدن وقوي بها قوة تمكن معها وتيقن ملك سائر البلاد الإسلامية بالأندلس،...))[٢٨]، أما الأخرى فذكرها ابن أبي زرع في سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨م قال: ((فيها ملك الروم مدينة أشبونة والمرية وطرطوشة وماردة وأفراغة وشنترين وشنتمرية ملكوا ذلك كله على يد رذريق))[٢٩].

أما بخصوص رواية ابن الأثير عن سقوط مدينة شنترين وبقية مدن مصب نهر تاجة سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م فالراجح أنها غير دقيقة ومما يُضعفها رواية ابن عذاري عن وجود وفد مدينة شنترين للتهنئة بتوحيد إشبيليةSevilla في شعبان من سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م[٣٠]، أما رواية ابن أبي زرع عن سقوطها سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م فيُضعفها أحداث سقوط مدينة لشبونة التي تمت سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م على أيدي الملك البرتغالي الفونسو هنريكيز بمساعدة حملة صليبية كانت

متجهة إلى الشرق رست عند المدينة في أواخر سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م فقام الفونسو بالتفاوض معهم من أجل مساعدته في اقتحام لشبونة ووعدهم بحصة من الغنائم، وأطمعهم بما ينالونه من ثواب في مقاتلة المسلمين، فالجهاد ضد المسلمين هو واحد سواء في فلسطين أم في الأندلس، عندها استجابوا لطلبه فسارت السفن الصليبية وضيقت الحصار على المسلمين من جهة البحر مما أدى إلى انقطاع الإمدادات عنها، وقد آثر السكان أول الأمر الدفاع عن المدينة أملاً في وصول مساعدات إليهم، ولكن حال باقي مناطق الأندلس الأخرى ليس بأحسن حال منهم، كما أن الموحدين لم يتمكنوا بعد من دخول الأندلس، وأمام نقص الأقوات وشدة الحصار وحالة اليأس اضطر سكان المدينة إلى التسليم مقابل الأمان والرحيل بأنفسهم على أن يتركوا أموالهم وأسلحتهم، فوافق الطرفان على ذلك وتم تسليم المدينة بعد حصار دام أربعة أشهر [٣١].

من خلال ذلك نستنتج بأن مدينة شنترين سقطت بيد ملك البرتغال الفونسو هنريكيز قبيل سقوط مدينة لشبونة أي في طريقه إليها سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م وذلك لأن زحفه نحوه لشبونة كان من جهة البر فيما طوقتها السفن الصليبية من جهة البحر ومن غير المعقول أن يترك شنترين وشنترة خلفه بيد المسلمين، والراجح أنه لم يجد مقاومة كبيرة فيها بسبب انهيار سلطة المرابطين آنذاك في الأندلس كما أن القوات الموحدية لم تصل بعد إلى مناطق غرب الأندلس مما سهل على الملك البرتغالي اقتحامها.

المبحث الثاني

الحملة الموحدية على شنترين سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م

١- مقدماتها:

بعد أن دخلت مدينة شنترين تحت نفوذ مملكة البرتغال سنة ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م، أصبحت تشكل تهديداً كبيراً إلى المناطق الإسلامية لاسيما في غرب الأندلس، إذ اتخذها النصارى قاعدة لشن هجماتهم، ففي سنة ٥٥٧ هـ/١١٦١ م غزا نصارى مدينة شنترين مدينة باجةBeja الأندلسية وتمكنوا من اقتحامها والسيطرة عليها، ومكثوا بها أربعة أشهر، ثم غادروها بعد أن دمروا ربوعها وخربوا أسوارها [٣٢]، وقد أشار ابن أبي صاحب الصلاة إلى هذه الغزوة بقوله: ((...، وقد كان النصارى أهل شنترين - أهلكهم الله - غدروا مدينة باجة

ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة الموافقة أول ليلة دجنبر، من عام سبعة وخمسين وخمس مائة، سكنوها أربعة أشهر وثمانية أيام، ثم هدموا أسوارها وأقفروها،...)[٣٣].

كما أشار ابن الابار إلى تلك الغزوة عند ترجمته لأحد أعيان باجة المدعو أحمد بن إسماعيل بن يوسف بن صاحب الصلاة بقوله: ((استشهد عند باب الجامع في غدر العدو بلده وذلك ليلة السبت الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وخمسمائة))[٣٤]، وهو ما دفع الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ/١١٢٩-١١٦٢م) إلى الاستعداد والتجهز للجهاد في الأندلس إلا أن المنية وافته قبل أن يحقق ذلك[٣٥].

ثم تكررت هجمات نصارى شنترين على مناطق غرب الأندلس، ففي سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م هاجمت قوات الملك البرتغالي الفونسو هنريكيز بطليوسBadajoz الواقعة جنوب شرق شنترين وتمكن من اقتحامها والدخول إلى جامعها[٣٦]، إلا أن القوات الموحدية تمكنت من هزيمتهم في السنة نفسها وإخراجهم من بطليوس، وقد أشار ابن أبي زرع إلى ذلك بقوله: ((وفي هذه السنة ملك الموحدون بطليوس وباجة ويابرة وحصن القصر))[٣٧].

وفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م في عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ/١١٦٢-١١٨٤م) هاجمت قوة من نصارى شنترين مدينة بطليوس مرة أخرى، وكرد فعل من قبل الموحدين فقد قامت قوة مؤلفة من خمسمائة فارس إلى بطليوس لتعزيز حاميتها والتصدي لهجمات النصارى المتكررة نحوها، وقد تحدث ابن أبي صاحب الصلاة عن ذلك بقوله: ((...، وبعثوا عند وصولهم إشبيلية منهم جملة مباركة نحو الخمس مائه فارس إلى مدينة بطليوس لحماية صيفتها فيسر الله لهم غزو شرذمة ذميمة من النصارى من أهل شنترين، أعادها الله، وهزموهم وغنموهم فاستأصلوهم قتلاً وسبياً،...))[٣٨].

وفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٥م، هاجمت قوة من نصارى شنترين مدينة طلياطةTliata الواقعة جنوبي شرقي لبلةNiebla التابعة لإشبيلية، وعلى إثر ذلك جهز والي إشبيلية الموحدي الشيخ أبو عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل حملة عسكرية لردهم مكونة من الحفاظ والعرب وجند إشبيلية الذين كانوا بقيادة أبي العلاء بن عزون[٣٩]، وتمكنت من ملاحقتهم وهزيمتهم، واستنقذت منهم الأسرى، وأسرت العديد منهم، كما حصلت على الغنائم، وبعث والي إشبيلية بخبر هذه الوقعة إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف يبشره، فسر به، وبعث

إليه يشكره[٤٠].

وفي تلك المدة ظهر فارس برتغالي مغامر يدعى جيرالدو سيمبا فور Geraldo Sem Pavor وتطلق عليه المصادر الإسلامية العلج جراندة الجليقي[٤١] وأخذ يجمع المرتزقة بمساعدة الملك البرتغالي الفونسو هنريكيز ويهاجم مدن غرب الأندلس ويقتل ويسبي المسلمين على غرار ما كان يفعله السيد القمبياطور[٤٢] أيام دويلات الطوائف بمساعدة الفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة (٤٥٨-٥٠٢ هـ/ ١٠٦٥-١١٠٨ م)[٤٣]، ففي سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م قاد الفارس البرتغالي المغامر جراندة حملة عسكرية اشترك فيها عدد كبير من نصارى شنترين، اتبع فيها نظام الكمائن في مواضع عدة، ثم هاجموا أحواز مدينة بطليوس القريبة منها، وعلى إثر ذلك خرج الوالي الموحدي أبو يحيى بن أبي حفص[٤٤] بقواته لمواجهتهم، وما كاد الموحدون يتصدون لهم حتى تظاهر النصارى بالفرار والهزيمة، فلاحقهم الموحدون حتى وصلوا إلى مقر الكمائن، عندئذ أطبق النصارى على الموحدين وأسروا عدداً كبيراً من خيرة رجالهم، وقد افتدوا منهم فيما بعد، وكان ذلك أواخر سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م[٤٥].

ويبدو أن هذا الانتصار الذي حققه النصارى شجعهم على مهاجمة مدينة بطليوس مرة أخرى، ففي شهر رجب من سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩ م كثرة هجمات القائد البرتغالي سيمبا فور (جراندة) على بطليوس، واشتد في مضايقتها وقطع المؤن عنها، فلما علم بذلك الموحدون في إشبيلية قرروا أن يرسلوا إليها مدداً، فجُهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات، وقام بحراستها الحافظ أبو يحيى زكريا بن علي في قوة من جند الموحدين بإشبيلية، ولما اقتربت هذه الحملة من بطليوس خرج إليها القائد البرتغالي (جرادة) في قواته وقوات من أهل شنترين وحدثت بين الطرفين معركة شديدة انتهت بهزيمة كبيرة للموحدين وقتل فيها العديد منهم، ومن بينهم القائد الحافظ أبو يحيى، كما استولى النصارى على قافلة المؤن ، وكان ذلك في يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ/١١٦٩ م، فكان لهذه النكبة صدى كبيراً على الموحدين بإشبيلية وقرطبة وبعثوا بخبرها إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في مراكش[٤٦].

وبعد ذلك تكررت هجمات النصارى من البرتغاليين ونصارى أهل مدينة شنترين على

مناطق الغرب الأندلسي، فقد هاجم ملك البرتغال الفونسو هنريكيز مدينة باجة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م، وانتسف زروعها، ثم تركها وسار نحو الجنوب الشرقي قاصداً وادي إشبيلية، ووصل في تقدمه إلى ضاحيتها الغربية طريانة Triana، فدخلها ودمرها، وعاث في أحواز إشبيلية، وبعدها عاد إلى مدينة باجة مرة أخرى فوجدها خراباً وقد أقفرت من أهلها، وذلك أن واليها عمر بن تيمصلت[٤٧] خرج منها بجندها وفرسانها وانظم إليه علي بن وزير حاكم شرية في قواته، وأغار على فحص أبي دانس Alcacer dosal، وحدث القتال بينهم وبين النصارى، وفي أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى مدينة شنترين فجأة وانضموا إلى النصارى في مواجهة الموحدين، وانتهت بهزيمة عمر بن تيمصلت وحليفه علي بن وزير وأسر عدد من الفرسان والرجالة، وقتل الباقون، وكان ذلك سنة ٥٧٤ هـ/١١٧٨م، وقد حُمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى مدينة قلمرية Coimbra، وعُذب ابن تيمصلت ثم أعدم، وافتدى الخليفة الموحدي أبي يعقوب ابن وزير بأربعة آلاف دينار [٤٨].

وتحدثت الرواية البرتغالية عن هذه الغزوة بشكل آخر، إذ أن الذي قام بغزو إشبيلية هو سانشو ولد الفونسو هنريكيز وولي عهده وذلك في سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأنه بعد أن هزم الموحدين في ظاهر طريانة، سار لغزو مدينة لَبلة، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت المهاجمين، ثم لحق بها بباقي قواته، وهزم الموحدين مرة أخرى، وبقيت باجة في حوزة البرتغاليين[٤٩].

وعلى إثر ذلك جهز الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف حملة عسكرية بحرية ضد النصارى المتمثلين بمملكة البرتغال سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م، وكانت الحملة بقيادة غانم بن مردنيش[٥٠] وأخوه أبو العلاء، وسارت إلى مياه البرتغال الشمالية، ورست عند ميناء سان مارتن دي بورتو شمالي لشبونة، ونفذ المسلمون إلى الداخل، وحاولوا مهاجمة ((بورتو دي موس)) التي تقع على مقربة من الشاطئ، ولكن حاكمها البرتغالي الأميرال روبينو استنجد لمعاونته أهالي مدينة شنترين، فهرعوا لإنجاده، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين في جبال منديجا، وانقضوا عليهم، فمزقت صفوفهم، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء، وجملة من أكابر الموحدين، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها، وساروا بها إلى لشبونة، وبعد ذلك كتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة أبي يعقوب يوسف يلتمس منه تخليصه، وعلى إثر ذلك عهد الخليفة إلى

أخيه هلال بن مردنيش[٥١] بالنظر في فداء أخيه، فجمع المال اللازم لذلك، وبعث به إلى إشبيلية، فحُمل إلى النصارى، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[٥٢].

وفي سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م عاود نصارى أهل شنترين هجماتهم على المناطق الأندلسية لاسيما على إقليم الشرف التابع لمدينة إشبيلية، وتصدى لهم المسلمون، وحدثت معركة شديدة بين الطرفين قتل فيها عدد كبير من النصارى، وبعد استخدم النصارى الكمائن، فانهزم المسلمون وقتل عدد منهم، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: ((فألح خيل النصارى أهلكهم الله من أهل شنترين بالضرب على بعض بلاد المسلمين بالشرف وغيره فخرج إليهم عسكر المسلمين من إشبيلية فتقاتلوا قتالاً شديداً وقتل فيه من النصارى نحو مائة وسبعين ثم خرج كمينهم فانهزم المسلمون واستشهد منهم جماعة،...))[٥٣].

لم يستكن نصارى أهل مدينة شنترين جراء حملتهم السابقة، بل سرعان ما تكررت في سنة ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م، ولكن هذه المرة توحدوا مع نصارى مدينة لشبونة، وهاجموا قرية شلوقةSanlucar من إقليم الشرف وقتلوا أعداداً من المسلمين وأسروا البعض الآخر، وبعدها هجموا على حصن القصر (أبي دانس) وانصرفوا عن طريق مدينة لبلة، وقد أشار ابن عذاري إلى هذه الأحداث بقوله: ((وفي سنة ثمان وسبعين وخمس مائة وقعت بالأندلس أحداث قبيحة فمن ذلك أن خيل النصارى من جهة شنترين وأشبونة وصلوا إلى قرية شلوقة من الشرف فضربوا عليها في ألف فارس وألف راجل وقتلوا من وجدوا من المسلمين وأسروا وغنموا وأغاروا علة حصن القصر وغيره وانصرف هذا العدو دمره الله على طريق لبلة موفورون والمسلمين بين أيديهم مأسورون))[٥٤].

٢- وقائع الحملة سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م

إن كثرة هجمات نصارى شنترين شكلت تهديداً حقيقياً على المناطق الأندلسية لاسيما غرب البلاد القريبة منها، الأمر الذي دعا الخلافة الموحدية بضرورة صدهم ووقف اعتداءاتهم المتكررة، وعلى إثر ذلك جهز الخليفة الموحدي أبو يوسف يعقوب حملة عسكرية كبيرة سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م من بلاد المغرب وتوجه إلى الأندلس، إلا أنه لم يعلن عن مقصدها ولم يحدد هدفها في بداية الأمر، ولعله يريد أن يحيط تحركاته بالسرية لكي يحتفظ بعنصر المباغته، وقد فصل ابن عذاري عن تحركات هذه الحملة وعبورها إلى

الأندلس بقوله: ((ففي يوم الثلاثاء الرابع من شهر محرم تحرك الخليفة أبو يعقوب يوسف من مدينة فاس على الهيئة المذكورة إلى أن وصل مدينة سبتة فأقام بها شهر محرم ثم عبر البحر يوم الخميس لصفر فحلّ بجبل الفتح، ثم سار من جبل الفتح إلى الجزيرة الخضراء إلى أن برز بعساكره على إشبيلية في يوم الجمعة الثالث عشر لصفر وخرج جميع أهل إشبيلية إلى لقائه والتبرك برؤيته فمن تواضعه وشرفه واعتنائه بالعلم أنه لما أبصر ابن الجد [٥٥] رحمه الله وهو يسرع في مشيه ليسلم عليه ترجل عن فرسه وتلاقيا فترامى ابن الجد على يد أمير المؤمنين وقبلها ومسح بها وجهه وقال: الحمد لله الذي جمعني بك يا حبيبي وحبيب الناس فتبسم الخليفة من قوله، وهذا من تواضعه وفضله)) [٥٦].

أما ابن أبي زرع فقد تحدث بشيء أكثر تفصيلاً في سير هذه الحملة والتحشيد لها بقوله: ((ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمئة في اليوم الرابع منها خرج أمير المؤمنين من مدينة فاس، فسار حتى وصل سبتة، فأقام بها بقية شهر محرم، وأمر الناس بالجواز فجازت قبائل العرب أولاً ثم قبائل زناتة ثم قبائل المصامدة، ثم غمارة وصنهاجة وأوربة وأصناف البربر، ثم جازت جيوش الموحدين والاغزاز، والرماة، فلما كمل الناس بالجواز هو في إثرهم في العبيد والدائرة، وكان جوازه في يوم الخميس الخامس لصفر من العام المذكور، فنزل بمرسا جبل الفتح، ثم ارتحل منه إلى الجزيرة الخضراء، فسلك منها إلى جبل الصوف إلى قلعة خولان[٥٧] إلى أركش[٥٨] إلى شريش[٥٩] إلى نبريشة[٦٠] إلى إشبيلية، فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر صفر نزل في وادي برتقال، فخرج إليه السيد أبي إسحاق وولده وفقها إشبيلية وأشياخها للسلام عليه، فبعث إليهم يأمرهم بالوقوف بآخر المنية حتى يصل إليهم فلما صلا الظهر ركب وجاز إليهم، فلما قرب منهم نزلوا عن دوابهم، فوقف إليهم حتى سلموا عن آخرهم وركبوا،...))[٦١]، وقد أقام الخليفة الموحدي بمدينة إشبيلية بعض الوقت لاستكمال الاستعدادات العسكرية وتنظيم الحشود وترتيبها قبل القيام بحملته[٦٢].

ويبدو أن هدف الحملة كان مدينة شنترين على الرغم منه أنه لم يحدد هدفها في بداية انطلاقها، ويعلل عنان مدينة شنترين بالذات هدفاً للحملة لأسباب عدة مادية ومعنوية، فقد كانت البرتغال في عهد أبي يعقوب أول مملكة نصرانية في شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان، وكانت مدينة شنترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان، فمنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التي شنها الفارس المغامر جيرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب

وحصونها في قطاع بطليوس، وهي ترجالُهTrujillo وقاصرش، ومنتانجش وشربة، وجلمّانيةJuremena ، ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها، واستيلائهما عليها، ولو لم يتعاون فرناندو [٦٣] ملك ليونLeon مع الموحدين على إنقاذ المدينة، لبقيت في أيدي البرتغاليين ، وكانت شنترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التي شنها البرتغاليون في أحواز إشبيلية، والتي وصلت في سيرها مرة إلى طُريانة، وأخرى إلى الشّرف ومدينة شلوقة، وعلى الجملة فقد كانت شنترين هي المركز الرئيسي لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها، وقد اضطلع فرسانها وجندها بأعظم دور في هذه الحملات العدوانية، والغزوات المخربة، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شنترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكيز ضربة شديدة، ويقضي على أهم مراكز العدوان في البرتغال، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى[٦٤].

أما الرواية النصرانية فأشارت إلى أن خطة زعيم الموحدين تقضي بمهاجمة مملكة البرتغال أولاً من البر والبحر ثم الزحف منها على ضفاف نهر التاجة ودويرة إلى قلب مملكتي قشتالة وليون، وأن تقوم قوات إسلامية أخرى بمشاغلة قوات النصارى في الجنوب[٦٥].

بعد ذلك تحركت الجيوش الموحدية من مدينة إشبيلية وعلى رأسها الخليفة أبو يعقوب يوسف غازياً إلى مدينة شنترين حتى وصلت إلى مدينة بطليوس، وتم النزول بها والاستعداد وانضمت لهم قوات أخرى، وهو ما أشار إليه ابن عذاري بقوله: ((وأقام أمير المؤمنين بإشبيلية على ما ذكرته من تنفيذ الأوامر فيما يصلح له ولجميع العساكر إلى أن تحرك غازياً إلى مدينة شنترين صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين لصفر على ما عهد في حركاته وترتيب هيئاته وتمادي المشي من منزل إلى منزل إلى حصن العرجة فوصله يوم الجمعة الرابع لربيع الأول ورحل منها وقد استكملت عليه العساكر من كل أفق وقد تزيا الجميع بأحسن الزيّ وتبخترا في المشي وتوشحوا بالسيوف الهندية والدرق اللمطية والقسي الخطية وسالوا في بطاح الأرض بتبريز يسخط الكفار حتى وصلوا مدينة بطليوس فأمر بالنزول عليها وميّز العساكر وأمرهم بلباس السلاح فامتثلوا ذلك وجددوا ما نقصهم من الزاد وكان إدريس بن جامع[٦٦] مغرباً مع بنيه بماردة وابن حيون الكومي[٦٧] كذلك

ببطليوس فرغبوا من الخليفة أن يأذن لهم في حضور هذه الغزوة فأذن لهم في الحين ومشوا في جملة المجاهدين))[٦٨] .

استمرت الجيوش الموحدية بالتقدم نحو مدينة شنترين بعد أن غادرت بطليوس، ووصلت إلى الناحية اليسرى من نهر تاجة، وتمكنوا من العبور بقيادة السيد أبي إسحاق والي إشبيلية، ووصلوا إلى مشارف مدينة شنترين، وقد أشار ابن عذاري إلى ذلك بقوله: ((ورحل يوم الخميس العاشر لربيع الأول من بطليوس ولما وصل إلى وادي تاجة أمر أمير الموحدين أن يتقدموا حتى يقفوا على باب شنترين ونهض معهم السيد أبو إسحاق الوالي على إشبيلية حتى وقفوا على باب شنترين يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول إلى وقت الظهر ولم يشتغل أحد بقتال ولا رمي بنبال إنما كان الغرض في رؤية أسوارها وفهم حال كفارها ونزل أمير المؤمنين بجميع عساكره بالجبل المطل على شنترين القريب إليها وأمر العساكر أن يبرزوا على الكفار فتأهبوا للتبريز والمجالدة والدفاع ثم وقفوا على بابها والكفار أهلها قد انجحروا داخلها بجموعهم وحشودهم وقد ملئت قلوبهم ذعراً وحسرة وأمير المؤمنين يأمر الناس بالتكبير والتهليل،...))[٦٩].

كما تحدث المراكشي عن تلك الحشود حول شنترين بقوله: ((...، ثم خرج يقصد مدينة شنترين - أعادها الله للمسلمين - وهذه المدينة - أعني شنترين - بمغرب الأندلس، وهي من أمنع المدائن،...، حتى نزل عليها، فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وإفساد زروعها وشن الغارات على نواحيها، وكان ابن الريق -لعنه الله- حين سمع بحركة أبي يعقوب إليه وصح عنده أنه يقصده، نظر في أمره، فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته، فلم يكن له هم إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوي الغناء من قواده وسائر أتباعه، ودخل بهم مدينة شنترين، واثقًا بحصانتها وشدة منعتها، هذا بعد أن ملأها أقواتًا وسلاحًا وجميع ما يحتاج إليه، وجلل أسوارها مقاتلة معهم الدَّرَق والقسي والحراب، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه))[٧٠].

ويبدو أن عدد القوات الإسلامية وحشودها كانت كبيرة جداً، وهو ما أشار إليه الحميري بقوله: ((وكان يوسف بن عبد المؤمن ملك المغرب اجتاز عليها في حركته الأندلسية بعسكره وهو أربعون ألفاً من أنجاد العرب الفرسان، ومن الموحدين والجنود والمطوعة

وفرسان الأندلس وأجنادها ما ينيف على مائة ألف فارس،...))[٧١]، وأشارت الرواية النصرانية أن ما حشده أبو يعقوب يوسف من الجيوش تفوق في الكثرة أي جيش آخر، وهو أعظم جيش قاده المسلمون إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد[٧٢].

وبعد أن وصلت القوات الموحدية إلى ظاهر مدينة شنترين أمر الخليفة أبو يعقوب يوسف بمحاصرتها، وفعلاً تم ذلك، وضربوا حولها الحصار، إلا أن النصارى تحصنوا بها واستعدوا للدفاع عنها، وهو ما أكده المراكشي بقوله: ((فبالغ أبو يعقوب في التضييق عليها وانتساف معايشها وقطع المواد والمدد عنها، فما زاد ذلك أهلها إلا صرامة وشدة وجَلَداً،...))[٧٣].

كما علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله: (...، فنزل بها وأدار عليها الجيوش والعساكر وشدّ عليها بالقتال وضيق عليها بالحصار، وبالغ في ذالك جهده، فأقام محاصراً لها مضيقاً عليها،...)[٧٤]، وذكر ابن الأثير أن حصار مدينة شنترين استمر مدة شهر[٧٥]، في حين أشار عنان نقلاً عن الرواية النصرانية أن الحصار لم يدم سوى عدة أيام[٧٦].

ومن أجل منع المسلمين من دخول المدينة قام النصارى بوضع حواجز لكي يستطيعون الاعتصام بها، والدفاع منها، إلا أن الموحدين تمكنوا من اقتحام الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور وهدموا الكنيستين اللتين به، وقتل كثير من المدافعين عنه، وارتد الباقون إلى القصبة، واعتقد القادة الموحدون أن السبيل ممهد لاقتحام المدينة والسيطرة عليها، وأعدت بالفعل السلالم اللازمة لاقتحام الأسوار، وفي يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول، هاجم الموحدون الأسوار، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة، وفي صبيحة اليوم التالي - السبت - تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول، ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة[٧٧].

وقد علق ابن عذاري على هذه الأحداث بقوله: (...، وهدم ربضهم المتصل بالسور وأوقدت النيران فيه، وطمع الناس في دخول المدينة وأمر النجارين بعمل السلاليم وبات الناس أحسن مبيت في ليلة الجمعة الثامن عشر من ربيع الأول، ولما صلى الناس الصبح يوم الجمعة المذكور أمر الناس بالتأهب لقتال الكفار في الأسوار فتقاتلوا حيناً حتى تمكنوا من الربض المذكور، ومن خرج من جيش النصارى هزم حتى كانوا يترجلون عن خيولهم

ويطلعهم إخوانهم بالجبال من أعلى سور القصبة وعاين الكفار في هذا اليوم ما أذهلهم وهالهم، وقرت أعين الإسلام بما نالهم، وهدمت الكنيستان اللتان بالمدينة البرانية وخربت دورها وأقفر معمورها،...، وبات الناس ليلة السبت على الحالة المرغوبة، من الأمل في فتح شنترين خربها الله، وفي صبيحة السبت تأهب الناس للقتال ودام القتال بينهم إلى يوم الاثنين الحادي والعشرين لربيع الأول فكانت بين المسلمين والنصارى حروب وخطوب،...)[٧٨].

كما أشارت الرواية النصرانية إلى هذه الأحداث، فمنها من وافقت الرواية الإسلامية واقتربت منها، ومنها من ابتعدت عنها في تفاصيلها، فالرواية التي اقتربت من الرواية الإسلامية تقول: إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين في الربض الخارجي للمدينة خمسة أيام، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجددون هجماتهم، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض، وأضحى الموقف مستحيلاً، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة[٧٩].

أما الرواية النصرانية الأخرى فقد ابتعدت عن ذلك وقدمت مزاعم لا يستطيع أن يسيغها العقل، إذ بينت أن الموحدين وصلوا إلى شنترين في يوم القديس خوان، أي في يوم ٢٤ يونيه، وحاصروها، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر، نجحوا في اقتحام المدينة من ثلمة أحدثوها، ولكن وصل في اليوم التالي أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً، وسدوا تلك الثلمة بجثثهم، وفي اليوم الذي يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل، وفي الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين[٨٠].

إلا أن المواجهات العسكرية بين الطرفين - الإسلامي والنصراني - لم تستمر طويلاً إذ سرعان ما توقف القتال في اليوم نفسه، وهو يوم الاثنين الحادي والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م ويشكل مفاجئ وبأمر من الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف، إذ أمر الأخير بالتوقف عن الاستمرار بالقتال، كما أمر الجيش الإسلامي بالتحرك من موضع نزوله إلى موضع آخر، أو من شرقي مدينة شنترين إلى غربها وشمالها، وهو ما أكده ابن عذاري بقوله: (...، فأمر الخليفة في هذا اليوم أن يرفع الناس أيديهم عن القتال وكان قد أمرهم أن يرحلوا من منزلهم وينزلوا في منزل آخر،...)[٨١].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، لماذا انسحبت القوات الإسلامية من مدينة شنترين

وبأمر من الخليفة الموحدي بعد أن حققت انتصاراً كبيراً على النصارى وأجبرهم على الاعتصام بداخل قلعتها، وكادت على وشك فتح المدينة والسيطرة عليها؟.

لم توضح الرواية الإسلامية أي تعليل أو شرح لهذا الارتداد المفاجئ للجيش الموحدي الكبير الذي كان محاصراً لمدينة مرهقة بعد أن سقطت أرباضها وأنهكتها المعارك المستمرة ولجأت حاميتها في النهاية إلى قصبتها، إلا أن جميع القادة والمقاتلين أصيبوا بالذهول لهذا القرار المفاجئ وغير الحكيم، فقد نقل ابن عذاري عن ابن أبي صاحب الصلاة الذي كان مرافقاً للحملة قوله: (...، فتعجب الناس من هذا الرأي في الانتقال والارتحال، وتعطلت في النفوس جميع الآمال، وظهر الخلل في جميع الأحوال،...، وحدث في هذا اليوم على عسكر أهل مرسية حدث مروع، وذلك أنهم خرجوا للإغارة في بسائط النصارى، فخرجوا عليهم وهزموهم بعد حروب شديدة ووصلوا للمحلة مهزومين مفلولين فأخذت من دواب المسلمين خمسين دابة خرجت برسم العلف وبات الناس في المحلة على حذر، ومن الوجل في ألم وضرر)[٨٢].

كما تحدث مؤرخ موحدي آخر عن سبب نكوص الخليفة وضجر الجيش من ذلك، وهو القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر كان مرافقاً للحملة بقوله: (فلما استراثت من جهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثواء، عزم أمير المؤمنين على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال، فأمر بالرحيل ليلاً،...)[٨٣].

كما عزا المراكشي الذي يعد من مؤرخي الموحدين انسحاب الجيش الموحدي برواية بقوله: (...، فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف- وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية، فإذا كان وجه الزمان عادوا إليها أو بعث من يتسلمها، وصوروا له أنها في يده، لا يمنعه منها مانع، فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه، وقال: نحن راحلون غداً إن شاء الله، ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار، لأنه كان قاله في مجلس الخاصة، فكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ في أهبة الرحيل، أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف عندهم بـ المالقي - وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم، يدعى خطيب الخلافة، وكان له حظ جيد من الفقه ومعرفة الحديث، وقسم وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة،

فلما رآه الناس قوض خباءه قوضوا أخبيتهم ثقة به، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها، فعبر في تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيد المواضع واختيار المنازل، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين، وبات الناس يعبرون الليل كله وأمير المؤمنين لا علم له ذلك،...) (٨٤).

كما فسر ابن أبي زرع رواية أخرى حول انسحاب الجيش الموحدي من مدينة شنترين قبل فتحها بقوله: (...، فانتقل من موضع نزوله بجوف شنترين إلى غربيها، فأنكر المسلمون ذلك ولم يعلموا له سبباً، فلما جنّ الليل وصلا العشاء الأخيرة بعث إلى ولده السيد أبي إسحاق والي إشبيلية فأمره بالرحيل من غد تلك الليلة إلى غزو مدينة لشبونة وشن الغارات على أنحائها وأن يسير إليها بجيوش الأندلس خاصة ويكون رحيله نهاراً، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل، وصرخ الشيطان في محلات المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل في هاذه الليلة فتحدث الناس بذلك وتأهبوا له، فرحل من الناس طائفة بالليل، فلما كان قرب الفجر، أقلع السيد أبو إسحاق وأقلع من كان يليه وتابع الناس بالرحيل، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم بمكانه لا علم عنده بذلك،...) (٨٥).

أما الرواية النصرانية حول انسحاب الجيش الموحدي، فيبدو أنها أكثر وضوحاً واتفاقاً مع الأحداث، إذ ذهبت معطياتها بأن الموحدين بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين في ربض مدينة شنترين وسلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية، أدركوا أن المدينة من المناعة، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة، بحيث يتعذر اقتحامها، ولابد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم، وفي أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم في تطور الموقف، ذلك هو مقدم فرناندو الثاني (٥٥٢-٥٨٤ هـ/١١٥٧-١١٨٨ م) ملك ليون وقواته، وكان فيما سبق عندما تحرك الجيش الموحدي من إشبيلية صوب بطليوس، كان فرناندو الثاني يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقي بطليوس محاولاً الاستيلاء عليها، فلما وقف على حركة الجيش الموحدي، رفع الحصار عن قاصرش، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو، ولما تعينت وجهة الجيش الموحدي بالسير إلى شنترين وحصارها، سار فرناندو في قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة، وذلك تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه بقتال الموحدين، كما تقول الرواية النصرانية أيضاً إن الفونسو ملك البرتغال كان متوجساً في

البداية من مقدم فرناندو وجيشه، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص) (٨٦).

ويميل أشباخ في تعليله انسحاب الجيش الموحدي إلى رواية ابن أبي زرع إلا أنه أضاف عليها بعض التفاصيل إذ ذكر أن الخليفة الموحدي كان مستبداً برأيه ولم يعر اهتماماً لرأي قادته بل عليهم أن ينفذوا ما يقوله، فعلى الرغم من اعتراض القادة على خطته إلا أنه أصر على رأيه فأمر ابنه أبو إسحاق والي إشبيلية أن يسير بقوات أهل الأندلس في اليوم التالي ليهاجم لشبونة وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجئة من هذه الناحية، فوقع سوء فهم، ذلك أن أبا إسحاق سار في الليل بدلاً من أن يسير في الصباح، وبدلاً من أن يسير في اتجاه لشبونة عاد فعبر نهر تاجة وسار بقوات الأندلس باتجاه إشبيلية، وما كان هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش حتى انتشر الاضطراب والروع في جميع المعسكر الإسلامي، وتفاقم الأمر حينما زحف سانشو بن ملك البرتغال على شنترين ليلاً في جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع بتنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة، وأمر بذبح جميع الأسرى النصارى الذين كانوا في معسكره وكان عددهم عشرة آلاف، لكي لا تعوقه حراستهم، بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة القى نفسه إمام الجيش البرتغالي وجهاً لوجه، وكان تغيير مواقع العسكر الذي أمر به أبو يعقوب وحده دون قواده، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجة، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق، وأخيراً ذيوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه، كل هذه الأمور بثت في معسكر المسلمين نوعاً من الرعب العام، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها، وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف بقيادة أسقف شنت ياقب، وانضم إليه الجيش البرتغالي الذي يقوده ولي العهد سانشو، وبادرت النصارى بمهاجمة الموحدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم، وعاونت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين(٨٧).

إن تطور الأحداث على هذا النحو يوحي بأن الذي دعا الخليفة الموحدي أبو يعقوب يوسف على اتخاذ قراره الفجائي بالانسحاب، هو خشية أن يعمل نصارى مملكة ليون على إعاقة عبور النهر إلى الضفة اليسرى، لاسيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شنترين(٨٨).

كما أن الخليفة الموحدي ومعاونيه أرادوا أن يكون الانسحاب وفق خطة منظمة مدروسة كي لا تؤدي إلى أي اضطراب في الجيش المنسحب، وهذا ما وضحه القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر المرافق للجيش بقوله: (...، وقد كان ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع، وأوعزوا إليهم ترتيب التحرك وكيفية القلوع، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والأثقال، وتتخلص إلى السعة من المضايق والأوحال،...)[٨٩] .

إلا أن الذي حدث كان عكس ذلك، إذ حدثت الفوضى والإرباك في الجيش الموحدي المنسحب، فقد أشار القاضي أبو الحجاج الذي كان شاهد عيان إلى ذلك بقوله: (...، فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً وكثر الضجيج واختلاط الأصوات وتهولت المحلات وأخذ العموم على شتى المسالك فلا ترى سميعاً ولا مطيعاً،...) [٩٠]، ولعل هذه الفوضى التي حدثت في الجيش الموحدي متأتية من المفاجئة في قرار الانسحاب لاسيما بعد أدركوا أن النصر قريب منهم، فضلاً أن الكثير منهم لم تصله نبأ الحشود النصرانية مما جعل التوجس من المجهول أكبر.

ويبدو أن نصارى مدينة شنترين استغلوا هذه الأوضاع والإرباك الحاصل في الجيش الموحدي المنسحب، بادروا بالخروج من المدينة، وهجموا على القوات المنسحبة، وأدركوا ساقة الخليفة، وتمكنوا من قتل العديد من أكابر الموحدين، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة الذي جرح في المعركة، إذ أصابه بعضهم بجراح خطيرة، وبعد انتهاء المعركة أمر الخليفة الجريح وهو ملزم فراشه برجوع كل جندي إلى قبيلته، وأمر بتخريب الوادي وانتساف زروعه، وبعد أيام عدة توفي الخليفة على إثر الجراح التي أصيب بها في السنة نفسها أي سنة ٥٨٠ هـ/١١٤٨ م ، وهذا ما تحدث به القاضي أبي الحجاج يوسف بن عمر وكان مرافقاً للجيش المنسب بقوله: (وحضرت يوم الإقلاع وليله، فما رأيته في تاريخ قبله، ولا يحضر واصف هوله، ولما عرف الخليفة بدنو الروم من ساقته وباجترائهم على الافتراس بأكناف ساحته، أمر بضرب الطبول واشراع الألوية في النصول فأقبلوا لأصوات الطبول مهطعين، ودفع من كان بجناحي الساقة على من وجدوا من الروم منبسطين، وغادروهم في مصارعهم مجدلين، وحان لهم شر يوم ما ظنوا أنه يحين، وأخذ ثأر الشهداء في الحين، ونزل أمير المؤمنين بعدوة الوادي، وقد بدت من جرحه البوادي، وأمر بتفرق الجموع ورجوع كل

واحد منهم إلى قبيلته من العموم، واستقبل موسطة البلاد وأباح فيها مبالغة الفساد، وأمر بتخريب ما وجد من المباني وتغوير المياه واستيصال الأشجار وانتهاب الزروع وتحريق كل ما يمكن تغييره وإزالة عينه بالنار، وتمادى المشي على هذا النحو إلى حصن طرش فأقام بذروة جبله وأمر بشن الغارات عليه وتقسيم السرايا على الجنبات إلى جلب الأقوات وأمر السيد أبا زيد بن الأخ أبي حفص على معظم البعوث فاستاق من الغنائم ما وقف العجز عن سوقها ووصلوا والخليفة ملتزم الفراش وكان له أيام لم يخرج لأحد، ثم أمر بالرحيل وخرج على مطيته مضطجعاً على فراشه وتمادى القفول وضعفه يتزايد والأطباء حاضرون ابن زهر وابن مقبل وابن قاسم ملازمون له حتى حازوا وادي تاجة وضعف عن الجلوس على الدابة فصنع له سرير ورواق عليه يحجبه من الهواء والخدمة مطيفون به يتفقدون فيما يحتاج إليه من صلاح شأنه، فذكر أنه تفقد بعد أميال فوجد قد توفي رحمه الله وذلك في الثامن عشر لربيع الأول من سنة ثمانين وخمس ماية) [٩١].

كما أشار المراكشي إلى هذه الأحداث بقوله: (...، فلما رأى الروم عبور العساكر وبلغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يعقوب والمسلمون من الرحيل، ورأوا انفضاض الأجناد وافتراق أكثر الجموع، خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتهم، في خيل كثيفة، فحملوا على من يليهم من الناس، فانهزموا أمامهم، حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب، فقتل على باب الخباء من أعيان الجند خلق كثير، أكثرهم من أعيان الأندلس، وخُلص إلى أبي يعقوب فطعن تحت سرته طعنة ، مات منها بعد أيام يسيرة)[٩٢].

كما تحث ابن أبي زرع برواية أخرى حول الانسحاب ومقتل الخليفة مختلة بعض الشيء في تفاصيلها، إذ قال: (...، وتطلع النصارا المحصورون من سور المدينة على المحلة وقد أقلعت وارتحلت ولم يبق حول المدينة غير أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته وتحققوا ذلك من جواسيسهم فتحوا أبواب المدينة وخرج جميع من فيها خرجة منكرة وهم ينادون الراي؟ الرأي، أي اقصدوا السلطان، فضربوا في محلة العبيد إلى أن وصلوا أخبية أمير المؤمنين فمزقوها واقتحموا عليه فيها، فقاتلهم بسيفه حتى قتل من رجاله ستة رجال وطعنوه طعنات نافذات، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصببن عليه حتى طعن ووقع بالأرض، فتصايح الناس والفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس وتراجع المسلمون فقاتلوهم عليه حتى أقلعوهم عن الخباء بالسيف، واشتد القتال بينهم وتواقفوا ساعة في قتال شديد، ثم

انهزم أعداء الله ومنح الله عز وجل المسلمين أكتافهم، فركبوهم بالسيف حتى أدخلوهم المدينة عنوة، وقتل منهم خلق كثير يزيدون على العشرة آلاف، واستشهد من المسلمين جماعة، فركب أمير المؤمنين والأمر قد فات فيه، وارتحل الناس لا يدرون إلى أين، ثم اهتدوا بالطبول فساروا إلى إشبيلية، فاشتد به آلامه وطعناته فمات بالطريق، وكانت وفاته يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر من سنة ثمانين وخمسمائة،...)[٩٣].

وقد علق عنان عن فشل حملة مدينة شنترين وأرجعها إلى عدة أسباب، كما شبهها بغزوة مدينة وبذةHuete [٩٤] السابقة لها بقوله: ولقد كان انسحاب الجيش الموحدي من أمام أسوار شنترين نكبة مؤلمة، تفوق في نتائجها الخطيرة المروعة، نكبة انسحابه من وبذة قبل ذلك باثني عشر عاماً، ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب، ونفس وجوه الضعف التي انتابت الجيش الموحدي، وعصفت بتماسكه ونظامه، وجعلته بالرغم من ضخامته، ووفرة استعداده وعدته، أشبه بكتلة بشرية مفككة، لا تجمعها أية قيادة حازمة، ولا هدف مشترك، وفتت في قواه المعنوية، فانهارت لديه فكرة الجهاد التي حشد من أجلها، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها، وترقب أول فرصة للانسحاب، ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأي قواده، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدي من شرقي وجنوب شنترين إلى الشمال والغرب، وهو أمر عارضه القواد الموحدون، لأنه يضع الجيش الموحدي في مواقع تعرضه لخطر التطويق، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذي استأثر الخليفة بإصداره، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة، وبين حرس الخليفة وخاصته، وكانت النكبة المروعة، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية، أضف إلى ذلك كله ما كان يعانيه الجيش الموحدي من نقص في تموينات، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضي التي يخترقها خلال مسيره، وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حملة وبذة، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها، واستمر اعتمادهم في حشدها على التفوق العددي دون سواه[٩٥].

أما أشباخ فقد عزا الانسحاب إلى خيانة وقعت في الجيش هدفها تسليم الخليفة إلى أعدائه إذ قال: لما كان قسم كبير من قوى الموحدين، قد عبر نهر التاجة، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى، وقوافل العتاد والمتاع، لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف لسرعتها، ورأى زعيم الموحدين وهو يضطرم سخطاً، أنه وقع ضحية الخيانة وأسلم إلى الأعداء، لكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان، وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحدين وهم يصيحون إليهم، إليهم، إليه، أي أين هو؟ ثم نفذوا إلى خيام الحرس وقتلوا رجاله جميعاً، ووثبوا إلى خيمة الأمير، ومزقوا كل ما حوت من الستور ولبسط والفراش، وقتلوا بعضاً من جواريه أشنع قتل، أما أبو يوسف فقد وثب إلى فرسه، وأسقط منه ثلاث مرات، وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى، وأخيراً طعنه أحدهم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجاً بدمائه [٩٦].

مما تقدم يمكن أن نجمل فشل حملة شنترين إلى أسباب عدة منها:

١- إن استبداد الخليفة برأيه في وضع خطة الهجوم دون الأخذ برأي القادة الآخرين جعله يقع في أخطاء عسكرية جاءت نتائجها في غير صالحه.

٢- لا نستبعد سخط القادة عليه دفعهم إلى الانسحاب على غير نظام وهو واضح من الفوضى التي حلت بالجيش الإسلامي الكبير عندما أعطيت لهم أوامر الانسحاب.

٣- قد لا يخلوا الانسحاب المفاجئ من مؤامرة وإلا بماذا نفسر السرعة في الحركة دون التحقق من حركة الخليفة وهو القائد العام للجيش.

٤- مما يثير الشكوك أيضاً إخفاء موت الخليفة طول الطريق إلى إشبيلية من قبل ابنه أبي يوسف يعقوب حتى حضور بقية إخوته وأكابر الموحدين فأخذوا البيعة له.

٥- ونحن لا تنفق مع رواية ابن أبي زرع من أن ابن الخليفة أبو إسحاق أساء فهم أوامر أبيه بالحركة نحو لشبونة فعبر النهر ورحل نحو إشبيلية، إذ أن هذه الرواية لا يقبلها العقل في مثل تلك المواقف المصيرية.

٦- كما أن تبرير قرار الانسحاب خوف هجوم البرد كما في رواية المراكشي غير مبررة أيضاً كون الهجوم على شنترين كان في ربيع أول الصيف وليس آخره.

٧- كما لا نتفق مع ما نقله ابن عذاري عن أحد المقربين من الخليفة أنه ((لما استراثت من جهاتها الأنباء، وطال لغير طائل الثواء، عزم أمير المؤمنين على الارتحال، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال)) [٩٧] ، ونرى العكس من ذلك فإن المسلمين كانوا تواقين لمواصلة القتال لما حققوه من تقدم وحصر النصارى في قلعة المدينة، كما أن حصارهم لمدينة شنترين لم يدم سوى خمسة أيام بين يوم الأربعاء ١٦ ربيع الأول ويوم الاثنين ٢١ ربيع الأول إذ قرر الخليفة الانسحاب، وهذه المدة قصيرة بالقياس إلى حصار المدن آنذاك.

٨- إن ما يرجح وجود خيانة في صفوف الموحدين هو ما ذكره المراكشي عن شخصية أبي الحسن علي بن عبد الرحمن المالقي الذي وصفه المراكشي بأنه كان خطيب الموحدين ومعتبر عندهم وكان يدعى خطيب الخلافة والناس يرونه أنه من المقربين من أصحاب القرار لاسيما الخليفة، فكان المالقي أول من قوّض خباءه وارتحل فلما رأوه الناس لم يشكوا بشيء لقربه من الخليفة، ويضيف المراكشي أن الخليفة الموحدي حقق في أمر الانسحاب فأخبروه بما صنع المالقي فتوعده بالعقوبة فلما علم بذلك هرب المالقي والتحق بمعسكر النصارى فأكرمه الملك النصراني وقربه، ثم إن المالقي ندم على فعلته وأراد أن يتقرب إلى الموحدين فأسل كتاباً يدلهم فيه على عورات مدينة شنترين ويحثهم بالرجوع إليها وأوهم الملك النصراني أنه يريد أن يرسل كتاباً إلى أهله يعلمهم بسلامته وإكرام الملك له إلا أن الملك النصراني اطلع على حقيقة الأمر عن طريق أحد عيونه فألقى القبض على المالقي وأحرقه [٩٨] .

٩- إن رواية المراكشي عن الخطيب المالقي تدفع كل ما ورد من تأويلات عن قرار الانسحاب، وأن خيانة المالقي كانت السبب الرئيس وراء الهزيمة التي حلت بالجيش الموحدي أمام مدينة شنترين، وصرح الدواداري عن ذلك بقوله: (وفيها عدى أبو يعقوب بن عبد المؤمن ملك المغرب إلى جزيرة الأندلس، فنزل على شنترين يحاصرها، وكان عدة عسكره مائتي ألف وستين ألف، فخامر عليه وزيره ابن المالقي، فرحل عنها، ولم يبلغ أربا منها) [٩٩].

المبحث الثالث

نتائج الحملة

إن خسارة المسلمين لمعركة شنترين سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م، وما أظهرته هذه المعركة من عجز الجيوش الموحدية واختلال نظامها شجع أطماع ملك البرتغال الفونسو هنريكيز في انتزاع ما تبقى من مدن الغرب الأندلسي، إلا أن وفاته سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م حالت دون تحقيق ذلك، فتولى ابنه سانشو الأول Sancho I (٥٨١-٦٠٩ هـ/١١٨٥-١٢١٢ م) تولى مهمة ذلك، فأخذ الملك البرتغالي الجديد منذ توليه على إصلاح الحصون التي خربتها الحرب وتعميرها بالسكان، وبعدها أخذ يعد العدة من أجل استئناف هجماته على مناطق غرب الأندلس، وكانت الظروف مهيأة له بالإمدادات العسكرية خلال تلك المدة، وهي الإمدادات الصليبية التي كانت تتجه نحو المشرق من ناحية المحيط الأطلسي [١٠٠].

وخلال مدة حكم ملك البرتغال سانشو الأول قاد الخليفة المنصور الموحدي (٥٨٠-٥٩٥ هـ/١١٨٤-١١٩٨ م) حملة عسكرية لمناطق غرب الأندلس الخاضعة للنصارى لاسيما مدينة شنترين ولشبونة وذلك في سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م إلا أنها كما يبدو جاءت كرد فعل على هزيمة الموحدين إمام شنترين، وقد أشار ابن أبي زرع إليها بقوله: (وفيها تحرك إلى الأندلس برسم غزو بلاد غربها، وهي أول غزو للروم، فجاز إليها من قصر المجاز إلى الجزيرة الخضراء، وذلك يوم الخميس الثالث من ربيع الأول من سنة خمس وثمانين المذكورة، فارتحل عن الجزيرة الخضراء حتى نزل شنترين وشن الغارات على مدينة الاشبونة وأنحائها، فقطع الثمار وقتل وسبا وأضرم النيران في القرا وحرق الزرع وبالغ في النكاية، وانصرف إلى العدوة بثلاثة عشر ألف سبية من النساء والذرية،...) [١٠١]، وواضح أن هذه الغزوة كانت عبارة عن استعراض للقوة وانتقامية إلا أنها لم تكن لها نتائج ملموسة على الأرض في الغرب الأندلسي، وأشار أشباخ أنها جاءت كرد فعل على هزيمتهم السابقة أمام شنترين ومقتل والده [١٠٢].

أما الجانب النصراني فكان أكثر استغلالا للوقت وانتهازاً للفرص، ففي السنة نفسها، أي سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م، وصل أسطول وصل أسطول صليبي كبير يتكون من خمسين سفينة، يحمل عدداً كبيراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه إسبانيا الغربية، ورسا في مياه

جليقيةGalicia قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة عند النصارى، ونزلت منه بعض الجند لتزور قبر القديس ياقب Santiago de Compistela، وعلى ما يبدو أن أهالي المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند، ودخلوا معهم في مواجهة عسكرية قتل فيها عدد من الجانبين،وعلى إثرها انسحب الجند الصليبيون إلى سفنهم، فسارت بهم نحو الجنوب، وفي الوقت نفسه تقدم أسطول صليبي آخر من انجلترا وبلاد الفلاندر بالقرب من مدينة لشبونة، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية، وخلال تواجدهم في مياه لشبونة تلقاهم سانشو ملك البرتغال ورحب بهم، وقد وجد في ذلك فرصة مناسبة من أجل الاستعانة بهم في غزو المناطق الأندلسية الجنوبية، واتفق مع القادة الصليبيين على تسيير حملة عسكرية مشتركة إلى مدينة شلب Silves، لانتزاعها من المسلمين، لأنهم كانوا يتخذونها قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها، وينهبون ثغورها، ويأسرون كثيراً من النصارى، وبالفعل استجاب إليه الصليبيون ، وتمت محاصرة المدينة والسيطرة عليها في السنة نفسها(١٠٣).

وقد أشار المراكشي إلى ذلك بقوله: (ولما كان في سنة ٥٨٥، قصد بِطْرُو بن الريق – لعنه الله – مدينة شلب، من جزيرة الأندلس، فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنجُ بالبُطْس والشواني، وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه، على أن يجعل لهم سبي البلد، وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك، ونزلوا عليها من البر والبحر، فملكوها وسبوا أهلها، وملك ابن الريق – لعنه الله – البلد)(١٠٤).

كما علق ابن عذاري على استيلاء ملك البرتغال على مدينة شلب وبمساعدة حملة صليبية كانت متجهة إلى بيت المقدس بقوله: (وفي هذه السنة كانت غلبة ابن الرنك اللعين على قاعدة شلب وإخراج أهلها،...، وكان من موافقة قدر الله وصول جملة من القراقير الرومية مجتازين على عادتهم إلى بيت المقدس مذ انتزع من أهل ملتهم، فيصلون أبداً في كل سنة إليه ليزيلوا عن أعناقهم بزعمهم عهداً في أديانهم ويخرجوا عن عهد شرط عليهم ونفذ إليهم من رهبانهم فعلقت الأنواء القراقير المذكورة بجهة أشبونة فألفى الكافر ابن الرنك مادة لعونة على كفره، وجيشاً ميسراً لما دبره من ختله وعذره، ووجد منهم قبولاً لجهاد المسلمين فأحدقوا بشلب من كل الجهات وبالغوا في حصارها إلى أن تملكوها وأخروا أهلها،...)(١٠٥).

ولما سمع الخليفة الموحدي المنصور بسقوط مدينة شلب عبر إلى الأندلس في جيش كبير

في محرم من سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م واتجه صوب قرطبة ووجه قسم من قواته بقيادة السيد يعقوب بن أبي حفص والي إشبيلية لمحاصرة شلب، واتجه الجيش من هناك، ورافقتها تحركات سفن الأسطول الموحدي أمام السواحل وضربوا حصاراً حول المدينة، ثم خرج المنصور من قرطبة بعد أن ميّز قواته واتجه غرباً صوب أراضي البرتغال لكي يخفف ضغط النصارى على القوات الموحدية المحاصرة لمدينة شلب، فوصل إلى ضفاف نهر التاجة شمال مدينة شنترين، وأثخن الموحدون في تلك المنطقة فانتسفوا زروعها، وخربوا ضياعها، بعدها عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرشTorrox الواقعة على مقربة من مدينة شنترين فحاصروها بشدة، حتى عرض قائدها على التسليم بالأمان، فوافق الخليفة المنصور وغادر القلعة من كان فيها من النصارى، بعدها خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها، ثم ساروا شمالاً وهاجموا مدينة طومار Tomar، وهي من القواعد المنيعة، وحاصروها، إلا أنهم لم يستمروا طويلاً في حصارها، إذ رفعوا الحصار عنها، وكان الملك البرتغالي آنذاك في مدينة شنترين لا يجرؤ الخروج منها لمواجهة الموحدين(١٠٦).

إلا أن الجيش الموحدي لم يستمر طويلاً في حصار طومار، فسرعان ما أمر الخليفة بالكف عن القتال والانسحاب إلى إشبيلية فوصلها في جماد الآخرة من سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م(١٠٧)، ويعلق عنان على هذه الغزوة وارتدادها دون تحقيق أي نتائج بقوله: ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضي البرتغال لم تسفر عن نتائج ذي شأن، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة، فلم تؤخذ طومار، ولم تُسترد شلب، وهي غاية الغزو الأولى، ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين في الجيوش الموحدية، كان دائماً في مقدمة أسباب فشلها في تحقيق أغراضها العسكرية، على أننا نستطيع أن نلاحظ في نفس الوقت، أن ما تذرع به المنصور من الحزم في تنظيم الارتداد في الوقت المناسب، كان كفيلاً بسلامة الجيش الموحدي، وعدم تعرضه لكارثة أخرى، من طراز كارثة شنترين(١٠٨).

وعليه كانت حملة المنصور الموحدي سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م نحو نهر تاجة هي الأخيرة التي لامست مدينة شنترين ومنطقتها ولم نعد نسمع بعد هذا التاريخ عن محاولات إسلامية للتقدم نحو تلك المناطق.

ويمكن إجمال أهم نتائج فشل الحملة الموحدية بالآتي:

١- قوى ساعد القوات النصرانية البرتغالية وجعلتهم يطمحون لانتزاع المزيد من الأراضي من المسلمين مستغلين بذلك الظروف المواتية لهم لاسيما الحملات الصليبية التي كانت قد بلغت أوجها آنذاك، وقد أشار ابن عذارى إلى ذلك بالقول: ((والعدو في أثناء ذلك يشن الغارات، ويبالغ في النكايات، حتى أخذ بمخنق غرب الأندلس براً وبحراً، واستعان بقراقير الافرنج فأذاق المسلمين ضراً))[١٠٩].

٢- تمكن البرتغاليون بمساعدة القوات الصليبية المتجه نحو بيت المقدس من الاستيلاء على مدينة شلب سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩م[١١٠]، كما تمكنوا بمساعدة الصليبيين أيضاً من الاستيلاء على مدينة قصر أبي دانس سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م[١١١].

٣- لم تأت حملة المنصور الموحدي على غرب الأندلس سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بنتائج مهمة على الأرض، وقد جاءت كرد فعل على هزيمتهم في شنترين، وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى عدها غزوة فاشلة[١١٢].

٤- كان لانسحاب الجيش الموحدين أمام شنترين أثره في ضعف الحالة المعنوية للمسلمين في باجة ويابرة مما سهل على نصارى البرتغال الاستيلاء عليها سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م[١١٣].

٥- شجع انحسار نفوذ المسلمين عن وادي نهر تاجة ملك قشتالة الفونسو الثامن (٥٥٣-٦١١هـ/١١٥٨- ١٢١٤م) على مهاجمة حصن أم غزالة الواقع بين بطليوس وشنترين[١١٤].

٦- شجعت انتكاسة الجيش الموحدي أمام شنترين اضطراب أمر المغرب، فقامت ضدهم عدة ثورات عدة استنزفت منهم الكثير من المال والرجال والوقت[١١٥].

الخاتمة:

تعد مدينة شنترين من القواعد المهمة في غرب الأندلس، لذا فإنه منذ فتحها من قبل المسلمين في حدود سنة ٩٥هـ/٧١٣م تحولت إلى ساحة للصراع بين المسلمين والنصارى استمر لقرون عدة حتى سقوطها النهائي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، إلا أن ذلك لم يضع حداً للصراع بين الجانبين، فقد جعل منها نصارى البرتغال مركزاً تتجمع فيه جيوشهم لمهاجمة مدن الغرب الأندلسي، لذا حاول الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدي قيادة حملة كبيرة لاسترجاعها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وعلى الرغم من ضخامة الحملة إلا أنها لم

تستطع تحقيق أهدافها، فجاءت بنتائج عكسية على الدولة الموحدية كان في مقدمتها مقتل الخليفة الموحدي وهزيمة جيشه، مما مهد السبيل أمام القوات النصرانية للاستيلاء على العديد من المدن الأخرى مستغلين حالة الانكسار التي أصابت الجيش الموحدي ومهدت السبيل فيما بعد من استيلاء البرتغاليين على معظم مدن الغرب الأندلسي.

هوامش البحث

(١) وهو من أنهار شبه الجزيرة الأيبيرية الكبيرة حيث يشق البلاد من شمالها الشرقي عند مدينة تطيلة ويتجه غرباً فيمر بطليطلة ثم إلى شنترين وشنترة ولشبونة ويصب في المحيط، ينظر: ابن حيان، المقتبس، (للحقبة ٣٠٠-٣٣٠ هـ/ ٩١٢-٩٤١ م) ص ٢٧٩؛ المراكشي، المعجب، ص ٢٧٢؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٤٨.

(٢) ينظر عن موقع مدينة شنترين وأوصاف البلدانيين لها: ابن حوقل، صورة الأرض، ص ١١٠؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٨/٢، ٥٥٠، ٥٥٣، ٧٢٦؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٢؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٧٥؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ١٧٩؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٦؛ شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص ٣٢٣؛ مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٩٩.

(٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٤٢٥.

(٤) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٣٦؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٥٥؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣١/٢.

(٥) نفح الطيب، ٢٧٦/٢.

(٦) طه، الفتح والاستقرار، ص ١٨١؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم (٣)، ص ١٩٣-١٩٤.

(٧) ينظر استيطان القبائل البربرية في غرب الأندلس ومنها شنترين: ابن الفرضي تاريخ علماء الأندلس، ص ١٧-١٨؛ الضبي، بغية الملتمس، ص ٢٢٦؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٣٠؛ طه، الفتح والاستقرار، ص ٢٧٣.

(٨) ينظر عن استيطان بعض القبائل العربية المنطقة: ابن الابار، التكملة، ٨٥/٢، ١٣٦/٤ مؤنس، فجر الأندلس، ص ٣٦٧.

(٩) ينظر التفاصيل: السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ١١٩؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٧٠.

(١٠) كان أبوه مروان ينتمي إلى أحد أسر المولدين أصلها من جليقية قد تمرد في مدينة ماردة في عهد الأمير الحكم بن هشام سنة ٢٠١ هـ/٨١٦ م وبعدها رجع إلى طاعة الأمير عبد الرحمن الثاني، وقد خلف عبد الرحمن أبوه في حكم مدينة بطليوس وقام ببنائها بإذن من الأمير عبد الله بن محمد وأسس له إمارة

مستقلة فيها ضمت مناطق واسعة من الغرب الأندلسي حتى انتزعها منهم عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٧هـ/٩٢٩ م، ينظر: ابن حيان، المقتبس (للحقبة ٢٣٢-٢٦٧ هـ/ ٨٤٦-٨٨٠ م)، ص ٣٦٠-٣٧٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٩٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٠٣/١-٣٠٧، ٣٣٨-٣٣٩.

(١١) السامرائي، الثغر الأدنى الأندلسي، ص ٢٥٩.

(١٢) وهم الأسبان سكان البلاد الذين دخلوا الإسلام وأقاموا في مواضعهم، ينظر: مؤنس، فجر الأندلس، ص ٤٦٩.

(١٣) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٠٨.

(١٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ١٩٨/٢.

(١٥) وهم من قبيلة مكناسة البربرية تمكن جدهم عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس من الاستبداد بحكم مناطق غرب الأندلس وتولى بنوه من بعده حتى القضاء عليهم من قبل المرابطين، ينظر: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ١٨٣/١٨٠/٢.

(١٦) ابن عذاري، البيان المغرب، ٢٣٨/٣.

(١٧) المراكشي، المعجب، ص ٢٢٨؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٥٦/٢؛ عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ص ٥٤٦؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ٢٣٩.

(١٨) ينظر التفاصيل عن ظهور دولة البرتغال: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٦٩/٣؛ أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢٤٧/١-٢٦٠.

(١٩) المراكشي، المعجب، ١١٦-١١٨؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ١٦١؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٧٠/٣؛ السامرائي، علاقات المرابطين، ص ٢٣٢.

(٢٠) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢٢٦؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٥٢/٣.

(٢١) كانت بداية دولة الموحدين حركة دينية ظهرت في بلاد المغرب تزعمها محمد بن عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي الذي ينتمي إلى قبيلة مصمودة البربرية، وسعى الموحدون إلى إنهاء حكم المرابطين في لمغرب والأندلس، وفعلاً تمكنوا من ذلك إذ دخلوا عاصمتهم مراكش سنة ٥٤١ هـ/١١٤٦ م وأحكموا سيطرتهم عليها ثم عبروا إلى الأندلس، لمزيد من التفاصيل ينظر: ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٢٠ وما بعدها؛ المراكشي، المعجب، ص ١٤٣-١٤٩؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص١٧٢ وما بعدها.

(٢٢) السامرائي وآخرون، تاريخ المغرب العربي، ص ٢٨٨-٢٨٩.

(٢٣) انظر التفاصيل: السامرائي وآخرون، تاريخ العرب، ص٢٧٦-٢٨١.

(٢٤) ينظر التفاصيل: دندش، الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص ٧٠-٧٥.

(٢٥) ينظر: طه، دراسات أندلسية، ص ١٩٠.

(٢٦) مكي، البرتغال الإسلامية، ص٢٦؛ عاشور، أوربا، ص٥٤٨ وقد رجح تاريخ اتخاذه لقب ملك سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م.

(٢٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٥٢٨/٣.

(٢٨) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٢٦.

(٢٩) الأنيس المطرب، ص ٢٦٣.

(٣٠) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٣٥-٣٦.

(٣١) أشباخ، تاريخ الأندلس، ٢٣٦/١؛ الحجي، التاريخ الأندلسي، ص ٤٦١؛ عاشور، أوربا، ص ٥٤٨؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ١٩١/٢؛ العلياوي، الحملات الصليبية، ص ١٢٩؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم (٣)، ص ٢١١-٢١٣؛ العمايرة، مراحل سقوط الثغور الأندلسية، ص ٢٣٩.

(٣٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٩٣/٣.

(٣٣) تاريخ المن بالإمامة، ص ٣٦٩.

(٣٤) التكملة، ٦١/١.

(٣٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٧٩.

(٣٦) أشارت سحر عبد العزيز سالم إلى نقش على شاهد قبر للفقيه أبي القاسم خلف الذي استشهد عند اقتحام النصارى مدينة بطليوس في الأول من ربيع الأول من سنة ٥٥٦ هـ/١١٦٠ م، ينظر: تاريخ بطليوس، ١٩٤/٢.

(٣٧) الأنيس المطرب، ص ١٣١.

(٣٨) تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٧٥.

(٣٩) كان شيخ الرؤساء بالأندلس والمستشار الناصح لعبد المؤمن بن علي ولابنه من بعده، وكان ينعت بناصح الدولة المهدية، وحضر غزوة وبذة مع الخليفة الموحدي أبي يعقوب، ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٦٩ هامش (١).

(٤٠) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٣-٤؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٩٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠/٣.

(٤١) ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٢٣٢؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠١، ١٠٤، ١٠٥؛ ابن خلدون، العبر، ٣٢١/٦.

(٤٢) وهو فارس قشتالي مغامر تزعم فرقة من الفرسان النصارى، وأخذ يجوب شرق الأندلس ويستأجر نفسه لحكامها، ثم يضرب بعضهم ببعض من أجل إضعافهم، وكانت له صداقة مع أحمد المقتدر بن هود، ثم مع ولده يوسف المؤتمن، ولعب دوراً كبيراً في الصراع بين حكام بين هود، ثم لما رأى اختلال الأمور في بلنسية توجه إليها بصحبة المستعين الأصغر بن هود وضرب عليها الحصار مما اضطر أهلها إلى الاستسلام

بعد أن عقدوا معه معاهدة تصب في صالحه وأسياده حكام قشتالة، وكان ذلك سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، وصادر أموال القادر بن ذي النون، ثم نقض الصلح مع أهالي المدينة وقتل القاضي ابن جحاف الذي وقع معه المعاهدة بعد أن عذبه حرقاً بالنار، ثم أمر بإحراق جماعة من أهل المدينة وسام أهلها العذاب، مما اضطر الكثير منهم إلى مغادرتها، ولم ينقذ ذلك الوضع إلا وفاته سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩ م، ينظر: ابن بسام، الذخيرة، ٧٣/٥ وما بعدها؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ٣١/٤-٤٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣١/٣-٢٣٨.

(٤٣) سالم، تاريخ بطليوس، ١٩٨/٢-١٩٩.

(٤٤) هو أبو يحيى بن أبي حفص عمر بن تمصيلت أحد قادة الموحدين ولي بطليوس سنة ٥٦١ هـ/١١٦٥ م وباجة سنة ٥٧٠ هـ/١١٧٤ م، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٩، ١٣٣-١٣٤.

(٤٥) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٩: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٤١/٤.

(٤٦) ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٤٢٣؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١١٠؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ٢١٨/٢.

(٤٧) هو أبو علي عمر بن تيمصلت التينملي أحد قادة الموحدين ومن الحفاظ تولى بطليوس لهم سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨ م كما ولي باجة أيضا، وقتل سنة ٥٧٣ هـ/١١٧٧ م عندما كان يتصدى للبرتغاليين في مدينة قصر أبي دانس، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٠٩، ١٢٨، ١٣٤-١٣٥.

(٤٨) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٤-١٣٥.

(٤٩) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٩٨/٤.

(٥٠) هو ابن الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير منطقة شرق الأندلس، وقد كان غانم ذو دراية بالبحر فقد جعله الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن قائداً للقوات الأندلسية في مدينة إشبيلية، ثم جعله قائداً للأسطول الموحدي في مدينة سبتة بعد أن اشتدت هجمات النصارى البحرية، فغزا مدينة لشبونة وهزم سفنهم، ثم تعرض للهزيمة ووقع في الأسر سنة ٥٧٦ هـ/١١٨٠ م، فأمر الخليفة أخاه هلال أن يفتديه من الأسر بأموال كبيرة وتم فكاكه، ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٥٥-٥٥٦؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٣، ٢١٥-٢١٧؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤١/٢؛ السلاوي، الاستقصا، ٢٨٠/١؛ جابر، بنو مردنيش، ص ١١٣، ١١٥.

(٥١) هو ابن الأمير محمد بن سعد بن مردنيش وولي عهده، يكنى أبا القمر، تولى الأمر بعد وفاة أبيه سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١ م، ولكنه بادر بالطاعة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فأكرمه وجعله من خاصته وتزوج أخته زائدة بنت سعد وزوج ابنه يعقوب من أختها صفية بنت سعد، ينظر: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٠٦-٥٠٧، ٥٥٣-٥٥٥؛ المراكشي، المعجب، ص ١٨٠-١٨١؛ ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٢١-١٢٢؛ ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٤٠/٢؛ الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٨٣-١٨٤.

(٥٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٣؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٠٠/٤؛ سالم والعبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص ٦٦-٦٧؛ العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص ٣٥١-٣٥٢.

(٥٣) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٤٥.

(٥٤) البيان المغرب، قسم الموحين، ص ١٤٥.

(٥٥) هو أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد الفهري من أهل إشبيلية كان عاماً فقيهاً ومحدثاً وأديباً، وانتهت إليه رئاسة الفتوى في مدينته، توفي سنة ٥٨٦ هـ/١١٩٠ م، ينظر: ابن الابار، التكملة، ٦٤/٢-٦٥.

(٥٦) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٥٩؛ ينظر أيضاً: ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص٤٧٩.

(٥٧) وهي قلعة كبيرة تقع بين مدينتي الجزيرة الخضراء وإشبيلية، ينظر: أرسلان، الحلل السندسية، ٢٩٧/١.

(٥٨) مدينة أندلسية قديمة تقع على وادي لكة وتشتهر بكثرة الزيتون، ينظر: الحميري، الروض المطار، ص٢٧.

(٥٩) مدينة أندلسية على مقربة من البحر وتعد من كورة شذونة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٣٤٠.

(٦٠) لم نجد لها ترجمة.

(٦١) الأنيس المطرب، ص ٢١٤-٢١٥.

(٦٢) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٥٩.

(٦٣) وهو فرناندو الثاني ملك ليون الذي حكم المملكة للمدة (٥٥٢-٥٨٤ هـ/١١٥٧-١١٨٨ م)، ينظر: الحسيناوي، قشتالة، ص ٢١٦.

(٦٤) دولة الإسلام في الأندلس، ١١٦/٤-١١٧.

(٦٥) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٢/٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١٨/٤-١١٩.

(٦٦) هو أبو العلا إدريس بن إبراهيم بن جامع والي الوزارة للخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف واستمر حتى قبض عليه سنة ٥٧٧ هـ/١١٨١ م ونفاه، ينظر: المراكشي، المعجب، ص ١٨٠.

(٦٧) هو أبو زكريا بن حيون الكومي شيخ قبيلة كومة البربرية كان من خواص الخليفة أبو يعقوب يوسف الموحدي ثم نكبه ونفاه إلى بطليوس، ينظر: ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٣٠-١٣١؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١١٢/٤.

(٦٨) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٥٩-١٦٠.

(٦٩) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٠.

(٧٠) المعجب، ١٨٢.

(٧١) الروض المعطار، ص ٣٤٦.
(٧٢) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٢/٢.
(٧٣) المعجب، ص ١٨٢.
(٧٤) الأنيس المطرب، ص ٢١٤؛ ينظر أيضاً: ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ٢٦٩/٢.
(٧٥) الأندلس من الكامل في التاريخ، ص ٣٧٩.
(٧٦) دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٤/٤.
(٧٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٢/٤.
(٧٨) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦١.
(٧٩) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٢/٤.
(٨٠) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٢/٤
(٨١) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦١.
(٨٢) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦١-١٦٢.
(٨٣) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٣.
(٨٤) المعجب، ص ١٨٢-١٨٣.
(٨٥) الأنيس المطرب، ص ٢١٤.
(٨٦) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٥/٤.
(٨٧) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٣/٢-٧٤.
(٨٨) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٥/٤-١٢٦.
(٨٩) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٣.
(٩٠) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٣.
(٩١) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٤.
(٩٢) المعجب، ص ١٨٣.
(٩٣) الأنيس المطرب، ص ٢١٥.
(٩٤) حدثت غزوة مدينة وبذة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م التي فشل فيها الخليفة الموحدي أبو يعقوب في تحقيق أهدافه فيها، ينظر التفاصيل: ابن أبي صاحب الصلاة، تاريخ المن بالإمامة، ص ٥٢٣-٥٤٤؛ ابن الأثير، الأندلس من الكامل في التاريخ، ص٣٨٧؛ المراكشي، المعجب، ص ١٧٧-١٧٨؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٣١٨/١٥؛ الدرويش والعلياوي، دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم (٥)، ص١٩٣-٢٠٧.
(٩٥) دولة الإسلام في الأندلس، ١٢٩/٤-١٣٠؛ وينظر أيضاً: العبادي، صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، ص ١٩٢-١٩٣.
(٩٦) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٤/٢.

(٩٧) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٦٣.
(٩٨) المعجب، ص ١٩٠-١٩١؛ ينظر أيضاً: الذهبي، تاريخ الإسلام، ٣٢٣/٤٠.
(٩٩) كنز الدرر وجامع الغرر، ٧٤/٧.
(١٠٠) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٠/٤.
(١٠١) الأنيس المطرب، ص ٢١٨.
(١٠٢) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٨/٢.
(١٠٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٠/٤-١٧١؛ أشباخ، تاريخ الأندلس في المرابطين والموحدين، ٧٩/٢-٨٠
(١٠٤) المعجب، ص ١٩٩.
(١٠٥) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠١-٢٠٢.
(١٠٦) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠٣-٢٠٧.
(١٠٧) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠٦.
(١٠٨) دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٨/٤.
(١٠٩) البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠١.
(١١٠) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠١-٢٠٢.
(١١١) الحميري، الروض المعطار، ص ٤٧٥؛ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ٢٤٢-٢٤٣؛ أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢٠٥-٢٠٦؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٣٣٨/٤.
(١١٢) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٧٩/٢؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٧٨/٤؛ سالم، تاريخ بطليوس الإسلامية، ٢٤٣/٢.
(١١٣) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص ٢١٩.
(١١٤) ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ٢٠٣.
(١١٥) ينظر الثورات ضد الموحدين بعد سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م: ثورة بني غانية في بجاية سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م، ابن عذاري، البيان المغرب، قسم الموحدين، ص ١٧٦ وما بعدها.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأولية

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت٦٥٨هـ/١٢٥٩م)

١- التكملة لكتاب الصلة، عني بنشره وصححه السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة، ١٩٥٦م.

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم بن عبد الكريم الجزري (ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢م)

٢ - الأندلس من الكامل في التاريخ، جمعه وحقق نصوصه جاسم ياسين الدرويش، ط ١، دمشق، ٢٠١٥.

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني (ت ٥٦٠ هـ/ ١١٦٤ م)

٣- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩ م.

ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ/١١٤٧ م)

٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠م.

- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: حوالي ٧١٠ هـ/١٣١٠م)

٥- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠ م.

- ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبي (ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)

٦- صورة الأرض، ط ٢ ، ليدن ١٩٣٨ م.

- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م)

٧- المقتبس من أنباء أهل الأندلس (للحقبة ٢٣٢-٢٦٧ هـ/ ٨٤٦-٨٨٠ م) تحقيق محمود علي مكي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣ م.

٨- المقتبس (للحقبة ٢٧٥-٣٠٠ هـ/ ٨٨٨-٩١٢ م)، تحقيق إسماعيل العربي، ط ١، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠ م.

٩- المقتبس من أنباء أهل الأندلس (للحقبة ٣٠٠-٣٣٠ هـ/٩١٢-٩٤١ م)، تحقيق ب. شالميتا بالتعاون مع كور نيطي و م. صبح، منشورات المعهد العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩ م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني(ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤ م).

١٠- أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام المسمى بتاريخ اسبانيا الإسلامية، تحقيق سيد كسروي حسن، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣ م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م)

١١- تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق خليل شحادة، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م.

- الدواداري، أبو بكر عبد الله بن آبيك (ت القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي)

١٢- كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٧، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، ١٩٧٢ م.

- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (ت ٧٤٨ هـ/١٣٤٧ م)

١٣- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٣م.

١٤- سير أعلام النبلاء، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله (كان حياً سنة ٧٢٦ هـ/ ١٣٢٥ م)

١٥- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢ م.

- ابن سعيد، علي بن موسى (ت ٦٧٣ هـ/ ١٢٧٤ م أو ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م)

١٦- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، ١٩٧٠ م.

- شيخ الربوة، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م)

١٧- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨ م.

- ابن أبي صاحب الصلاة، عبد الملك (ت حوالي (ت ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م)

١٨- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٧٩ م.

- الضبي، أبو جعفر أحمد بن عيسى (ت ٥٩٩ هـ/١٢٠٢ م)

١٩- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧ م

- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢ هـ/ ١٣١٢ م)

٢٠- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، تحقيق ومراجعة جـ.س كولان وإ-ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥١ م؛ ج ٣ تحقيق ومراجعة. ج. س. كولان وإ-ليفي بروفنسال، ط ٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣ م، والجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٧ م، والجزء الخاص بالموحدين تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥ م.

- ابن غالب، محمد بن أيوب بن غالب البلنسي (ت ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ م)

٢١- قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦ م.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف (ت ٤٠٣ هـ/١٠١٢ م)

٢٢- تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد الكتاني (ت ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م)

٢٣- نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمود علي مكي، تطوان، المغرب، ١٩٦٥ م

ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر (ت ٣٦٧ هـ/٩٧٧ م)

- مجهول، مؤلف (ت القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)

٢٤- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، بيروت، ١٩٥٧ م.

٢٥- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مجريط، ١٨٦٧ م.

- مجهول، مؤلف (ت في حدود ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م).

٢٦- تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧ م.

- المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م)

٢٧- المعجب في تلخيص أخبار المُغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥ م.

- المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م).

٢٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨ م.

- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي الحموي (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م)

٢٩- الأندلس من معجم البلدان، حققه وعلق عليه جاسم ياسين الدرويش، ط ١، البصرة ٢٠١٢ م.

ثانياً: المراجع الحديثة

- أرسلان، شكيب

١- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٣٦ م.

- أشباخ، يوسف

٢- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠ م.

جابر، جابر خليفة

٣- بنو مردنيش ودورهم السياسي والعسكري في الأندلس (٥٢٨-٦٣٦ هـ /١١٣٤- ١٢٣٨ م) ط ١، دمشق ٢٠١٧ م

- الحجي، عبد الرحمن علي.

٤- التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧ هـ/ ٧١٠-١٤٩١ م) ط ١، بغداد، ١٩٧٦م.

- الحسيناوي، محمود عاشور عبيد

٥- قشتالة دراسة في أحوالها الداخلية وعلاقاتها بالدويلات النصرانية في أسبانيا (منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - ٨٤٤ هـ/١٤٩٧ م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة البصرة، ٢٠١٨ م.

- الدرويش، جاسم ياسين

٦- أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧ م.

- الدرويش والعلياوي، جاسم ياسين وحسين جبار

٧- دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم (٣)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٨ م

٨- دراسات في تاريخ المدن الأندلسية، سلسلة رقم (٥)، دار تموز، دمشق، ٢٠١٩ م.

- دندش، عصمت عبد اللطيف

٩- الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨ م.

- سالم، سحر عبد العزيز

١٠- تاريخ بطليوس الإسلامية، أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، ١٩٩١ م.

- سالم، السيد عبد العزيز

١١- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، لبنان، ١٩٦٢ م.

- سالم، السيد عبد العزيز، والعبادي، أحمد مختار

١٢- تاريخ البحرية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٩ م.

- السامرائي، خليل إبراهيم.

١٣- الثغر الأعلى الأندلسي دراسة في أحواله السياسية ٩٥-٣١٦ هـ/ ٧١٣-٩٢٨ م، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٦ م.

١٤- علاقات المرابطين بالممالك الأسبانية بالأندلس وبالدول الإسلامية، دار الحرية للطباعة، بغدد، ١٩٨٦ م.

- السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون.

١٥- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٦ م.

١٦- تاريخ المغرب العربي، مديرية دار الكتب، الموصل، ١٩٨٨ م.

- السامرائي، عبد الحميد حسين أحمد

١٧- الثغر الأدنى الأندلسي، دراسة في أحواله السياسية خلال فترة الولاة والإمارة ٩٥-٣١٦ هـ/٧١٤-٩٢٨ م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٧ م.

- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

١٨- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء.

- طه ، عبد الواحد ذو النون

١٩- دراسات أندلسية، ط ١، الموصل، ١٩٨٦ م.

٢٠- الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، ١٩٨٢ م

- عاشور، سعيد عبد الفتاح

٢١- أوربا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو مصرية، ط ٩، القاهرة، ١٩٨٣ م.

- العبادي، أحمد مختار

٢٢- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ط ١، الإسكندرية، ١٩٦٨ م.

٢٣- صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس، ط ١، الإسكندرية، ٢٠٠ م.

- العلياوي، حسين جبار

٢٤- الحملات الصليبية على الأندلس حتى نهاية دولة المرابطين (٩٦-٥٤١ هـ/٧٤١-١١٤٦ م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٥ م.

- العمايرة، محمد نايف

٢٥- مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، ١٩٨٩

- عنان، محمد عبد الله

٢٦- الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال دراسة تاريخية أثرية، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٧ م.

٢٧- دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ١، ٢، ط الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، جـ٣، ٤، ط ٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

- مكي، محمود علي

٢٨- البرتغال الإسلامية، مجلة العربي، العدد ٢١٩، لسنة ١٩٧٧ م.

- مؤنس ، حسين

٢٩- فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية ٩٢-١٣٨هـ /٧١٠-٧٥٥ م، ط ١، القاهرة، ١٩٥٩ م.